مجلة دراسات معاصرة؛ دورية دولية نصف سنوية محكّمة تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي تيسمسيلت الجزائر

الأصول المعرفية العربية
للنقد النسقي في الجزائر

د. خلف الله بن علي
أستاذ محاضر بالمركز الجامعي
تيسمسيلت الجزائر

ملخص:

عرف النقد الجزائري المعاصر منذ ثمانينات القرن الماضي تحولات كبيرة وذلك في المفاهيم النقدية والتي أصبحت في رأي الكثير من نقادنا غير قادرة على مواكبة العصر وتحولاته السريعة والمتجددة في العالم، وذلك اقتداءً بما عرفه النقد المعاصر من تطور في بعض الدول العربية كلبنان والمغرب وتونس ومصر وسوريا والسعودية، حيث نشطت الحركة النقدية بجلب النظريات والمناهج النقدية من الغرب وذلك بترجمة الكثير من المؤلفات الغربية التي تمثلت المناهج النقدية النسقية، فتأثر النقد النسقي الجزائري بهذه الحركة في الوطن العربية فاقتدى بها ينسج على منوالها تارة ويضيف لها ما أمكنه ذلك، ويبدو أثر النقد النسقي العربي واضح على نظيره الجزائري وهذا ما سوف نناقشه في هذه المقالة.

الكلمات المفتاحية: النقد الجزائري المعاصر، نقد نسقي، نقد عربي معاصر، تأثير، تأثر.

Les origines cognitives arabes
de la critique systémique en Algérie

résumé :

La critique structurale contemporaine algérienne a connu depuis les années quatre-vingt du siècle dernier, de grands changements dans les concepts actuels, qui sont devenus de l'avis de bon nombre de nos critiques qu'ils ne sont pas en mesure de suivre les temps et les transformations rapides et renouvelables dans le monde, suivant l'exemple tel que défini par la critique contemporaine de l'évolution dans certains pays arabes comme le Liban, le Maroc, la Tunisie, l'Egypte, la Syrie et l'Arabie Saoudite , où il a eu un mouvement actif de critique pour apporter dans les théories des approches sur la critique occidentale en traduisant une grande partie de la littérature occidentale, qui se composait de programmes relatifs à la critique systémique. De ce fait , la critique algérienne est influencée par la critique arabe et dès lors elle a commencé à l'imiter . Ainsi, Il est à noter que la critique arabe se distingue à son homologue algérien, et voilà ce que nous allons discuter dans cet article.

Arab cognitive origins
Of systemic criticism in Algeria

abstract :

Algerian contemporary structural criticism has undergone great changes in current concepts since the 1980s, which have become, in the opinion of many of our critics, unable to keep pace with the times And rapid and renewable transformations in the world, following the example as defined by contemporary criticism of evolution in some Arab countries such as Lebanon, Morocco, Tunisia, Egypt, Syria and Saudi Arabia , Where he had an active movement of

criticism to bring into theories approaches to Western criticism by translating much of Western literature, which consisted of programs related to systemic criticism. As a result, Algerian criticism is influenced by Arab criticism and has since begun to imitate it. Thus, it should be noted that Arabic criticism differs from its Algerian counterpart, and this is what we will discuss in this article.

Keywords: *Contemporary Algerian Criticism, Sestymatic Criticism, Contemporary Arab Criticism, Influence, Influence.*

مقدمة:

لقد شهد الميدان الإبداعي ومناهج مقارباته –على السواء- تحولات جمّة. وما المدارس الأدبية المعاصرة والمناهج النقدية الحديثة إلا صورة وانعكاسا لبنى ذهنية نامية قابلة للانكسار، وكذا الأمر بالنسبة للتنويعات في علاقاتها بالحامل والمحمول، هذا التغيير الإبلاغي اللامحدود فرض مناهج نقدية متغيرة، ذات انطلاقات متباينة في عملية إدراك البلاغ في تحديد قيمة النص، فالنص أصبح دوالا ومدلولات، أشكالا ومضامين، والمدولات –بدورها- تحمل قيما متباينة منها الاجتماعي والديني والفلسفي والتاريخي وأكثر من كونها فنية، وبالتالي فإنها لا تمثل الأدبية بالمعنى الحقيقي، فالفكرة الواحدة قد تحملها آلاف الصيغ، لكنها تظل نفسها، ومع ذلك فإنها تسمو وتنحط من محتوى إلى آخر –رغم تماثل المعنى- ومن هنا وردت فكرة الحديث عن الشكل بدل المضمون الواحد المتغير[1].

وهذا ما رسخته اللسانيات كعلم لغوي جديد رافق ظهورها ميلاد أفكار وفلسفة لغوية جديدة، الذي ولّد بدوره ظهور مناهج نقد أدبيّ جديد هو الآخر، ساهمت كلها في تأصيل الدراسة النقدية المشتغلة على النص، وتعميق وتكثيف النظريات، وتأسيس الممارسات تأسيا علميا، فقامت هذه النظرات –وبكل أشكالها- تتحدى مغالق النص، وتطارحه سؤالاتها، وترصده توقعاتها، فيسلمها مفاتيحه، فيتولد من النص نص جديد، ويخلق منه خلق جديد، فتتراءى عوالم جديدة قد يستغربها كاتب النص نفسه[2].

كان تأثير اللسانيات الحديثة في النقد الأدبي كبيرا، فلقد أمدّته بآليات منهجية ما كان للنقد الأدبي أن يتخلص من قيود القراءات السياقية والانتقال إلى دراسة الأدب من الداخل في غيابها. ولقد حدد (دي سوسير) مهمتها في الوصفية بدل الوقوف عند المعيارية بعدما أقام الفرق بين اللغة والكلام، ورأى أنّ لسانيات اللغة هي التي ينبغي دراستها، ذلك لأنّها تتضمن نظاما قادرا يمكن الوصول إلى علائقه وبنياته[3].

إن الدراسة الآنية ***Synchroniques*** كان لها فضل كبير في تخليص النقد الأدبي من دراسة النص من الخارج، واعتباره مجرّد وثيقة يحدّد طبيعتها المنهج النقدي المختار، لتتحول الممارسة النقدية إلى دراسة محايثة (***Immanence***) للظاهرة الأدبية، من منطلق أن اللغة ما هي إلاّ نسق من العلاقات الاعتباطية التي لا تعرف إلا عبر نظامها الخاص[4].

إن النظريات التي ظهرت بعد اللسانيات اعتمدت على المنطق والفلسفة والعلوم التجريبية كالرياضيات والفيزياء والبيولوجيا[*] ، وتعدد هذه النظريات جعل النص الأدبي شبكة من العلائق والأنظمة الكامنة تحركها القراءات الألسنية والبنيوية وما تفرع عنها من مناهج ونظريات كالشكلانية والأسلوبية والسيميائية والتفكيكية.

1- التأسيس لخطاب نقدي محايث في الجزائر:

لقد عرف النقد الجزائري المعاصر منذ ثمانينات القرن الماضي تحولا في المفاهيم النقدية التي صارت في نظر كثير من النقاد غير قادرة على مواكبة العصر وتحولاته السريعة والمتجددة، وذلك اقتداءً بما عرفه النقد المعاصر من تطور في بعض الدول العربية كلبنان والمغرب وتونس ومصر وسوريا، حيث نشطت الحركة النقدية بترجمة الكثير من المؤلفات الغربية التي تمثلت المناهج النقدية النسقية التي سادت النقد عندهم[5].

إنّ ما سبق أن تحدثنا عنه من حركية وتحول وتطور لطرائق النقد وآلياته ومناهجه ونظرياته، أصاب هوسه الناقد الجزائري، فلم ينأى بنفسه عن ذلك، بل انبرى يبحث له عن هوية وسط هذه الزخم النقدي العالمي، فتوجه نقادنا إلى مختلف المدارس الحداثية ينهلون منها المعارف، وإلى شتى التيارات النقدية المعاصرة يدارسونها ويأخذون منها ما استساغته عقولهم وما قبلته ثقافتهم، وكل هذه بغية تطوير تجاربهم وتجديد طرائقهم وآلياتهم الفكرية والقرائية على السواء.

وعمد نقادنا منذ ثمانينات القرن الماضي إلى هذه المناهج والنظريات الجديدة يحاولون تفهمها؛ وبالتالي تطبيق معطياتها على النص المحلي أو العربي، ولا يختلف اثنان أن الناقدين (عبد الملك مرتاض وعبد الحميد بورايو) هما من بكّر إلى تبني هذه المناهج في دراساتها العديدة والمشتغلة على النص الأدبي، وسنحاول أن نثبت ذلك انطلاقا مما أنتجاه هذان الناقدان.

1-2- عبد الملك مرتاض:

لا يشكك أي باحث بخصوص ريادة عبد الملك مرتاض -زمنيا- في الدراسات الحداثية في الخطاب النقدي الجزائري العربي. فهو يعتبر من الثائرين الأوائل على المناهج التقليدية بداية ثمانينيات القرن الماضي –والتي خاض فيها طويلا- ويذهب بعض نقادنا إلى أن التأريخ لظهور النقد الجديد في الجزائر يعود لسنة 1983، باعتبارها السنة التي ظهر فيها كتاب عبد الملك مرتاض «النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟» كون هذا المُؤَلَّف الأشمل مادة، والأعمق دراسة، والأكثر علمية، والأشد إغراء للقارئ، إضافة إلى أن مادته أسبق من حيث الإبلاغ والاستقبال[6]. بينما يرى غيره أن المسألة ليست كذلك، فإذا كان تاريخ الصدور هو معيار الأسبقية فإن الأمر –حينئذ- سيحسم لصالح (الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث «1920-1954»)التي نشرت أول مرة سنة 1981[7]، أما إذا كان الكتاب هو المعيار؛ فيجب الإشارة إلى أن عبد الملك مرتاض قد أصدر –قبل صدور (النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟)- كتابين يندرجان في هذا الإطار المنهجي، صدر كلاهما سنة 1982 وهما: (الألغاز الشعبية الجزائرية) و(الأمثال الشعبية الجزائرية)، أما كتاب (النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟) فهو عبارة عن محاضرات ألقاها الباحث على طلاب الماجستير خلال السنة الجامعية 1980/1981، وفي هذه الحال ينبغي أن نحتكم إلى تواريخ مقدمات هذه الكتب الثلاثة، والتي يعود أقدمها إلى سنة 1979، تاريخ تأليف الألغاز الشعبية الجزائرية الذي أفصح فيه سلوكه (المنهج البنيوي)، أو عناصر من أصوله على الأقل في القسم الثاني الذي ينصبّ على دراسة نصوص الألغاز الشعبية لغة وأسلوبا[8].

لقد ساهم هذا الناقد مساهمة معتبرة في التأسيس لخطاب نقدي جزائري حداثي، فهو يؤكد وبشدة على أن المدار في المنظور الحديث على الدراسة العمودية المنهج لا على الجمع، وعلى الملاحظة الدقيقة لا على الشرح التعليمي الأفقي المنهج... وتقوم الدارسة العمودية بتناول الإبداع الأدبي من عدة مناحي، ولا سيما من حيث بنيته الإفرادية والتركيبية، ثم من حيث الزمان فيه، وكيفية تعامل الكاتب معه، ثم من حيث الحيز، ورسم الصور الفنية من خلال وضع هذه البُنى، ثم أخيرا من حيث مستواه الصوتي[9]. ثم تلت هذه الكتابات كتابات أخرى كثيرة، كانت كلها تأسيسا للمناهج والنظريات الغربية في النقد العربي[10].

وفي معظم كتاباته نلفيه ينطلق من التراث وصولا إلى الحداثة، ولا يتردد مطلقا في ادعائه أنه صاحب نظريات اخترعها من نفسه، وواضع مصطلحات جديدة للنقد العربي. والمتصفح لهذه المؤلفات التي ذكرناها يجدها ملأى بهذه التصريحات.

ولئن تعرض الناقد إلى سيل من الاعتراضات إلاّ أنه يكفيه المساهمة في تخليص النقد الجزائري من رتابته وأدلجته، وقد كانت كتاباته دوما محفزا لغيره من النقاد في البحث عن الأمور التي أثارها أو نقده في ما يذهب إليه، فكم كتب أُلِّفَتْ تتناول الظاهرة المرتاضية بالنقد سواء إيجابيا أم سلبيا، دون أن نغفل قضية أخرى أكثر أهمية وهي اشتغاله على كل أجناس النص الأدبي شعرا ونثرا، حديثا وقديما فصيحا وعاميا إبداعا ونقدا.

1-3- عبد الحميد بورايو:

يُصَنَّفُ عبد الحميد بورايو الناقد الثاني في الجزائر ممن ثاروا على المناهج التقليدية وممن تبنّوا العلوم الغربية في مجال النقد، وإيمانا منه بتجديد آليات ومناهج ونظريات القراءة النصية لجأ-مبكرا- إلى جلب النظريات الغربية إلى المدونة النقدية الجزائرية، وقد نشر في وقت مبكر من حياته النقدية دراسة متميزة عن السائد النقدي آنذاك بعنوان (قراءة أولى في الأجساد المحمومة)، وَوَجْهُ التميّز فيها أنها محاولة بنيوية تكوينية متقدمة، أنجز الناقد شطرها الأول بتناول البنية السردية لـ(الأجساد المحمومة) (لإسماعيل غموقات)، وفقا لرؤية وصفية تحليلية، وبإجراءات مصطلحية جديدة... لكن هذه المحاولة لا تأخذ شكلها المنهجي المتكامل نسبيا إلا في كتابه (القصص الشعبي في منطقة بسكرة-دراسة ميدانية-)[11]، والذي يمكن أن يكون أول تجربة بنيوية في الخطاب النقدي الجزائري.

لقد كان أثر الناقد واضحا في التأسيس للمعرفة الغربية في الساحة النقدية الجزائرية وعلى المستوى العربي كذلك، خاصة في كتابه (منطق السرد دراسة للقصة الجزائرية الحديثة)؛ والذي تعرض في الجزء النظري من الكتاب للمناهج النقدية التقليدية بالنقد، حيث وسمها بالرتابة والجمود والاجترار، داعيا- على وجه السرعة- إلى استبدالها بمناهج أو نظريات تخدم قراءة

النص أو تحليله. وقد كان هذا ديدنه في محاضراته التي كان يلقيها في مدرجات الجامعة أو في الملتقيات، بيد أنه لم يدعِ أنه صاحب سبق تنظيري في هذا الكتاب، بل حاول استعراض الأصول العلمية للتحليل السيميائي السردي –الذي أنتجه في تحليل القصة الجزائرية- ورأى أنّ هذا الضرب من التحليل يتميز بالشمولية المنهجية؛ وذلك باعتماده على اللسانيات والأناسة والثقافة والإيبستيمولوجيا، معتمدا على آراء (جوزيف بيدي)، ثم مرفولوجيا الحكاية الخرافية الروسية لفلاديمير بروب، كما اعتمد على بعض العلماء الغربيين في هذا المجال –من أجل تقريب هذه المعرفة للقارئ العربي- أمثال (آن دنسن، وليفي ستراوس، وألجيراد غريماس، وتزفيتان تودوروف، وكلود بريمون وغيرهم)[12].

ولئن اكتفينا بهذين الناقدين فبسبب ريادتهما تاريخيا، باعتبار أنهما السباقان في هذا المجال دون أن نغفل ذكر بعض الأسماء الأخرى، والتي ساهمت فعليا في رسم معالم الدرس النقدي النسقي في الجزائر، ونخص بالذكر، حسين خمري، رشيد بن مالك، إبراهيم صحراوي، عبد القادر فيدوح، السعيد بوطاجين، أحمد يوسف وغيرهم الكثير.

بيد أن هذا التأسيس والتأصيل للنقد النسقي في الجزائر لم يكن وليد صدفة، أو بجهود محلية فردية، ولم يجلب الناقد الجزائري هذه المعرفة من أصولها مباشرة، بل يجب الإشارة -هنا- إلى نوع من المرحلية والتدرج الذين مرّ بهما هذا التحول، ولعل أهم مرحلة مرّ بها هذا النقد هي انتهاله من النقد العربي أولا، ثم النقد الغربي في مرحلة تالية ومتأخرة، بالاعتماد على الدراسة في الجامعات الغربية –الفرنسية خاصة- وترجمة المؤلفات الغربية.

2- الأصول المعرفية العربية للنقد النسقي في الجزائر:

2-1- الأصول العربية المشرقية:

لقد كَلِفَ نقادنا -نهاية سبعينيات القرن الماضي وبداية ثمانينياته- كلفا شديدا بالنقد النسقي، والذي أرست قواعده فتوحات (دي سوسير) اللسانية، والشكلانية الروسية، والأسلوبية والسيميائية والتفكيكية. وقد يتوهم الباحث في الإنتاج النقدي الجزائري أنّ أصول هذه المعرفة غربية، إلا أنّ واقع الأمر هو أن أصل هذه المعرفة عربي بحت، وذلك لتأثر الناقد الجزائري بصنوه العربي أولا، فلقد كان للدراسات العربية –والتي بكرت بتبني هذه المعرفة- دور كبير في نقل معظم العلوم الإنسانية الحديثة والمناهج النقدية النسقية إلى مدونتنا النقدية. ونذكر هنا جملة من الباحثين ممن كان لهم قصب السبق والريادة في ذلك، ومنهم (رشاد رشدي، محمد عناني، سمير سرحان، عبد العزيز حمودة، روز غريب، مصطفى ناصيف، لطفي عبد البديع، صلاح فضل، كمال أبو ديب، عبد السلام المسدي، حسين الواد، يمنى العيد، محمد برادة، جابر عصفور، وحميد لحمداني، محمد بنيس ومحمد مفتاح) وغيرهم.

انتقل النقد الجديد إلى الوطن العربي مع نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، وحمل لواءه جمع من النقاد المتشبعين بالثقافة الإنجليزية والمتغلغلين فيها، ويعتبر الناقد (رشاد رشدي) فارس هذه المراحل، وهو أول دكتور مصري في الأدب الإنجليزي، وقد ناضل هذا الباحث نضالا مستميتا في سبيل ترسيخ قواعد الحركة النقدية الجديدة في الوطن العربي[13]، وقد دعا إلى تكوين جمعية للنقاد العرب وفقا لهذه المبادئ الجديدة. وآزره في هذه الجهود وحمل الراية معه وبعده بعض طلبته الذين اضطلعوا بتقديم النظرية النقدية الجديدة لدى النقاد الغربيين الجدد عبر سلسلة كتيّبات؛ حيث نشر (محمد عناني) كتاب(النقد التحليلي)سنة 1962 عن كلينث بروكس، ونشر(سمير سرحان)كتاب (النقد الموضوعي) بداية الستينيات عن ماثيو أرنولد، كما نشر (عبد العزيز حمودة) كتابة (علم الجمال) عن كروتشي. وقد تضافرت هذه المؤلفات مع جهود كتاب آخرين أمثال الناقدة اللبنانية (روز غريب) في كتابها (النقد الجمالي) سنة 1952، أضف إلى ذلك إسهامات أسماء أخرى أمثال (محمود الربيعي)[14]، و(مصطفى ناصيف) الذي درس الأدب العربي من موقع التحليل اللغوي الإستيطيقي، و(لطفي عبد البديع) الذي آمن بأن البحث الأستطيقي هو الذي يتطلبه الشعر، و(أنس داود) الذي درس الأدب وفقا لمنهج الرؤية الداخلية وذلك بـ:

1- النظر إلى النص الأدبي على أنه معادل للواقع وليس نسخة له، وكذا اعتبار النص الأدبي كيان مستقل، بمعنى دراسة في ذاته بمنأى عن محيطه السياقي، أو التركيز على أدبية الأدب والابتعاد قدر المستطاع عن صاحبه والظروف المحيطة به، ويعتبر (محمود الربيعي) أكثر النقاد استماتة في الدفاع عن استقلالية النص الأدبي، والذي تحولت لديه هذه الاستماتة إلى عقيدة نقدية راسخة، ويظهر ذلك في قوله: "تتلخص عقيدتي النقدية في استقلال العمل الأدبي عن كل ظرف من ظروف تكوينه وخاصة ما يتصل بالظروف السياسية والاجتماعية، إنني أومن بأن العمل الأدبي نشاط بشري حيوي كامل في ذاته، مستقل بنفسه، له أصالته وقدرته التوجيهية المستقلة للحياة، وأدين بأن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة تفاعل

حيوي لا علاقة فعل ورد فعل... لذا يدهشني جدا ما يهتم به كثيرون من فحص العناصر المكونة للمجتمع على أساس أنها هي التي تؤثر على الأدب بصفته إنتاجا هو ابن بيئته، ويدهشني أكثر ما يحدث من الربط العضوي بين حياة الأديب الذاتية وصحيفة أحواله المدنية وأدبه، فيفسر الثاني في ضوء الأول، وأرى الأدب في كل صوره طائرا متأبّيا مستعصيا جموحا، لا يخضع لتوجيه شيء من خارجه، ولا يستجيب إلاّ للعناصر التي تشكل كيانه هو"[15].

2-النص كيان فني يقتضي دراسة لغوية جمالية.

3-النظر إلى النص الأدبي كصورة عضوية متكاملة، موحدة الشكل والمضمون، فالشكل عند (مصطفى ناصف) هو قوة المضمون ووحدته وتركيبه، وليس قالبه أو وعاءه الذي يُحفظ فيه، ويدعو الناقد (محمد عناني) إلى اعتبار العمل الفني "وحدة مترابطة لا تنفصل إلى شكل ومضمون... كما أن اعتبار الأعمال الفنية كائنات عضوية أي نامية متكاملة لا نستطيع بتر جزء منها دون إيذاء العمل أو حتى قتله"[16].

4-الدعوة إلى الدراسة والتحليل ونبذ التقييم، وما ينجرّ عنه من إصدار للأحكام دون حيثيات، ذلك أن التحليل موقفٌ يتيح لنا رؤية الكثير واستيعاب الغريب؛ برحابة أوسع. أما التقييم فكثيرا ما يجعلنا ننظر من وجهٍ ونهمل آخر، نحب معيارا ونرفض آخر[17].

صحيح أن المرتكزات التي انطلق منها هؤلاء لم تكن نابعة من مرجعية لسانية، إلا أنّها كانت شبيهة بتوجيهات النقد الجديد، الذي برز في الثقافتين الأنجلو سكسونية والفرنكوفونية، بل كانت ثمرة من ثمرات التأثر بمدرسة النقد الجديد، ولقد لقيت مؤلفاتهم صداما كبيرا ونقاشا واسعا، لاصطدامها بالنقد الاجتماعي السائد آنئذٍ، ودعاة الواقعية[18].

يرى كثيرٌ نقاد العرب أن بدايات السبعينيات من القرن الماضي كانت فاتحة عهد النقد العربي بالمناهج اللسانية، فيما كانت الستينيات تمهيدا لذلك وإرهاصا به، فقد كانت مرحلة انتقالية لابد منها، وبحكم القواسم المنهجية المشتركة بين النقد الجديد والنقد الألسني فقد مثلت تلك الجهود الرائدة التي ينبغي الاعتراف بأن الساحة النقدية المصرية قد كانت مضمارها الأكبر والأشهر، أقول مثلت تلك الجهود دورا كبيرا في تهيئة أجواء التلقي الألسني، مع مطلع السبعينيات[19]. فلقد كلف نقادنا منذ مطلع ثمانينات القرن الماضي كلفا شديدا بالنقد الحداثي الذي ظهر بعد فتوحات "دي سوسير" والشكلانية الروسية، والأسلوبية والسيميائية والتفكيكية ونظرية التلقي والتداولية، إلاّ أن جلب المعرفة الغربية لساحتنا النقدية –ونقصد في بداياتها- لم يكن من منابعها، بل يبدو واضحا وجليا لأي باحث أن أول من تأثر به نقادنا هو دخول هذه المعرفة الفكر العربي، ولعل كتاب محمد مندور "الميزان الجديد" والذي صدر سنة 1973 -وهو في كتاب نقد الشعر- يعد نقطة تحول بارزة في الخطاب النقدي العربي نحو المناهج النسقية بشكل ممنهج*، هو أول ما كتب في هذا المجال، وذلك منذ مطلع سبعينات القرن الماضي.

فقد حلل الخطاب الشعري وفق مستويات لم يكن للنقد العربي سابق معرفة بها وهي:

- المستوى الصوتي
- المستوى التركيبي
- المستوى الدلالي

وانطلاقا من هذه المستويات درس بنية الموسيقى الشعرية[20]. كما أشار في القسم النظري من هذا الكتاب إلى خروج بعض شعراء المهجر وبعض شعر المتنبي على مقاييس التركيب النحوي وقد اصطلح عليه (كسر السياق) (***Rupture de Syntaxe***) كما تناول قضية الخلاف في المستوى الدلالي، وذهب إلى أنّ المجازات اللغوية بكل أشكالها استعارات كنايات تشبيهات مجازات عقلية أو مرسلة تساهم إسهاما كبيرا في عملية الإثراء الدلالي، كما أنها تفتح الأفق للإيحاء وكذا التأويل، وقد حلل في هذا المؤلف مجموعة من القصائد مستعينا في تحليله ببعض معطيات علم اللسان.

وقد كان محمد مندور أبدى قبل لطفي عبد البديع ومصطفى ناصف إعجابه بطريقة النقد الفرنسي في اهتمامه بالنص ووصفه بأنه أدق المناهج وأفعلها في النفس، وذلك بقوله: "منذ عودتي من أوروبا أخذت أفكر في الطريقة التي نستطيع بها أن نُدخل الأدب العربي المعاصر في تيار الآداب العالمية؛ وذلك من حيث موضوعاته ووسائله ومناهج دراسته على السواء، ولقد كنت أومن بأن المنهج الفرنسي في معالجة الأدب هو أدق المناهج وأفعلها في النفس، وأساس ذلك المنهج هو ما يسمونه تفسير النصوص، فالتعليم في فرنسا يقوم في جميع درجاته على قراءة النصوص المختارة من كبار الكتاب وتفسيرها والتعليق عليها، وفي أثناء ذلك يتناول الأساتذة النظريات العامة والمبادئ الأدبية واللغوية بالعرض، عرضا تطبيقيا تؤديه النصوص التي يشرحونها". ومن الملاحظ أن مندور قد سحره منهج تفسير النصوص الذي كان يطبقه النقد الفرنسي- آنذاك، بخلاف ما كان سائدا في الدراسات النقدية العربية التي كان يغلب عليها المنهج التاريخي والاجتماعي[21].

ومع مطلع السبعينيات بدأ التحول إلى المناهج النسقية يبدو جليا في بلاد المغرب العربي وبصورة لافتة. ويَعُدُّ النقاد كتاب الناقد التونسي (حسين الواد البنية القصصية في رسالة الغفران)* وهو أول الحصاد النقدي البنيوي العربي، وتكتسي هذه الدراسة أهمية منهجية وتاريخية كبيرة، حيث تعتبر الأولى من نوعها من حيث الطول والأهمية، زيادة على أنها ستكون نقطة انطلاق لعدة دراسات آكاديمية مطولة[22].

وقد تلت هذه المحاولة -الرائدة- جهود أخرى تشاطرها المنطق النهاجي نفسه، فمنها كتاب (كمال أبو ديب) (في البنية الإيقاعية للشعر العربي) سنة 1974، ثم كتابه اللاحق (جدلية الخفاء والتجلي) سنة 1979، ثم كتاب (محمد رشيد ثابت) (البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام) سنة 1975، وكتاب (إبراهيم زكريا) (مشكلة البنية) سنة 1976، وكتاب (صلاح فضل) (نظرية البنائية في النقد الأدبي) سنة 1978، وكتاب (محمد بنيس) (ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب) سنة 1979.

وقد يتفرد كتاب (صلاح فضل) (نظرية البنائية في النقد الأدبي) بين سائر كتب تلك المرحلة ببعض التميز والريادة التاريخية، وكثرة المعرفة النقدية، وذلك بحكم ضخامة الحجم واتساع الكم المعرفي، لولا أن صاحبه أثقله بما ليس منه في جوهر موضوعه، إذ جاء في كثير من المواطن تكديسا للمقولات النقدية الجديدة بنيوية، شكلانية، أسلوبية، سيميائية، نقد أسطوري، وحشدا لها تحت راية واحدة، ولا يخفى ما في ذلك من تغييب للفروق النوعية بين الحقول المنهجية الجديدة[23].

لا شك أن هذا الزخم الهائل من البحوث العربية كان له فضل كبير على الناقد الجزائر وعلى توجهه إلى المناهج النسقية، ونحن نعرف أن ما ينشر في أي بلاد عربية يصل إلى كل البلدان الأخرى ويدرس ويحلل في زمن قصير، وذلك بسبب التفاعل العربي من جهة ووحدة اللغة والفكر من جهة ثانية. وبحق فقد كانت تلك الصدمة التي أصابت النقد والناقد العربي عامل دفع لنظيرتها في الجزائر، فانتقلت آثارها إلى الخطاب النقدي الجزائري مكتسحة كل مجالات النقد.

لقد أسهمت الكتابات النقدية العربية ليس في تغيير الخطاب النقدي فحسب بل أسهمت في التأسيس لرؤية فكرية جديدة، وفتحت المجال واسعا للتأمل والقراءة العميقة*، "فإذا كانت عناية الدارسين الغربيين لم تفتأ تتجدد وتتوسع، فنراها تتبارى في سبر أغوار النص الأدبي، وتتنافس في الذهاب إلى أبعد الحدود الممكنة في تحليله، والتنائي به عن الإجراءات التقليدية التي سادت قرونا طوالا، والتي كانت تقضي بفصل الشعر عن النثر الأدبي، وتخصيص موضوعات للشعر، وموضوعات أخرى للنثر. فإن الدارسين العرب المحدثين إذا استثنينا دراسات قليلة كعمل إلياس خوري في محاولة (دراسات في نقد الشعر) بإجراءات بنيوية، وكمحاولة حسين الواد الذي درس فيها نص (رسالة الغفران لأبي العلاء المعري) تحت عنوان (البنية القصصية في رسالة الغفران)، وكمحمد مفتاح في تحليل قصيدة ابن عبدون الأندلسي الرائية، وكعمل يمني العيد (في معرفة النص)، وكعمل خالدة سعيد في تحليل طائفة من الأعمال الأدبية في كتابها (حركية الإبداع)، وكعمل صلاح فضل في (شفرات النص)، وسوى هؤلاء ممن نعتذر من عدم ذكرهم: لم يعنوا كثيرا بتحليل النصوص الأدبية العربية، فيكشفوا عن خفاياها الفنية، ويستكنهوا أغوارها الجمالية، ويتحرّوا في ممارستهم إلى الحد الذي يبلغ في النص المطروح للتحليل بعض غايته"[24].

ومن خلال هذا التصريح نجد أن مرتاض قد أخذ جل معرفته الحداثية ونظرياته النقدية النسقية عن هؤلاء، باعتبار أنهم قد سبقوه في الزمن، عندما تبنوا المناهج النقدية النسقية؛ لأن معظم هذه المؤلفات التي ذكرها مرتاض صدرت قبل سنة 1980 وهي السنة التي كان مرتاض خلالها وقبلها لا زال ناقدا تقليديا، وباطلاعه على هذه التصانيف تأثر تأثرا كبيرا وتوجه إلى النقد النسقي، ولم يخف في مناسبة وبدونها -بعد ذلك- ثورته على أشكال النقد التقليدي ونعتها بأبشع النعوت، وقد ساهم هؤلاء النقاد -كذلك- في تغيير قناعته اتجاه ما كتب ويكتب في النقد العربي عموما، وانبرى بعد ذلك على المنتوج النقدي الغربي ينهل منه خاصة المدرسة الفرنسية، محاولا التأسيس لنظرية عربية حداثية في ذلك بإصداره عدة كتب تتحدث عن التنظير (في نظرية النقد) (نظرية القراءة) (نظرية النص)، وكلها عبارة عن محاولات نقدية حاول من خلالها مرتاض مدارسة النتاج النقدي العربي والعالمي.

ومن نقادنا الذين اعترفوا صُراحاً بفضل النقد العربي على صنوه الجزائري نجد الناقد حسين خمري حيث يعتقد أن الأعمال النقدية العربية المتخصصة في القراءة النصية وتحليل النصوص رائدها محمد مفتاح باعتباره "هو الذي دشّن هذه الممارسة، حيث خصص كتابا كاملا (في سيمياء الشعر القديم دراسة نظرية تطبيقية) سنة 1982 لدراسة نونية أبي البقاء الرندي، وأيضا كتابه (تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص)"[25]، ليأتي بعده في الأهمية -ودائما حسب خمري-

حميد لحميداني في مؤلفه (من أجل تحليل سيميو/بنائي للرواية، المعلم علي نموذجا)، إضافة إلى كتب أخرى ذكرها حسين خمري، والتي اعتقد هو أنها ذات قيمة كبيرة في تغيير مسار النقد العربي، ومن ذلك كتاب (سعيد علوش عنف المتخيل في أعمال إميل حبيبي).

أما المؤلفات التي تناولت مجموعة من النصوص -مع المحافظة على الانسجام في التحليل النصاني-فيمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر (خالدة سعيد) في كتابها (حركية الإبداع) و(يمنى العيد) في مؤلف (معرفة النص الراوي/ الموقع والشكل)، وكذلك (اعتدال عثمان) في مؤلف (فضاء النص) والناقد كمال أبو ديب في كتابه (جدلية الخفاء والتجلي)، ومحمد لطفي اليوسفي في كتابه (في بنية الشعر العربي المعاصر) وأخيرا محمد بنيس في كتابه (الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها)[26]

لحسين خمري لا يحيد عن عبد المالك مرتاض في الاعتراف بتأثره بالنقاد العرب وذلك من خلال تصفح هذه المؤلفات التي أسست –بالفعل- لنقد نسقي عربي، سهلت من خلالها لبناء هيكلة نقدية عربية والتي بدأت تتسع وتنشر في كل البلاد العربية. ولا شك أن حسين خمري قبل أن يخوض في الحداثة والمناهج النسقية قد اطلع على هذه التصانيف مدارسة وقراءة وتحليلا فكان لها الفضل الكبير في تحول رؤيته الفكرية والنقدية والعلمية. ونجده في جل مؤلفاته ينطلق من النقد العربي ثم يتوجه إلى النقد الغربي.

ونحن نتصفح المؤلفات النقدية الجزائرية وجدنا الباحث نور الدين السد في كتابه (الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث) يتعرض لتعريف مصطلح الخطاب، فنجده يعول تعويلا كليا على التعاريف العربية ابتداءً من أنطوان المقدسي[27] مرورا بعبد السلام المسدي[28] وبعد أن يعوج على تعريف الخطاب لدى النقاد الغربيين، يعود إلى النقد العربي متناولا مفهوم الخطاب لدى محمد مفتاح، وقد اعتمد تعاريفه وناقشها عبر صفحات عديدة من الكتاب ليخلص إلى أن الناقد المغربي محمد مفتاح كان في تعريفه لهذا المصطلح أكثر شمولية، بمعنى أنّه لم يعتمد على مدرسة واحدة لما قد يجره هذا من تعسف وابتسار، وإنّما اتجه إلى الأخذ ببعض المناهج والتوليف بينها في صيغة توفيقية، ليؤسس منها منهجا خاصا يتسم بالعمق والشمولية[29].

ويتبنى ناقدنا أفكار محمد مفتاح حيث يوافقه في مجال الشمولية عندما يقول محمد مفتاح "حينما نوينا الاستحاء من اللسانيات والسيميائيات لتدريس الخطاب الشعري والكتابة، فيه ترددنا بين أمرين ممكنين: العكوف على ما كتبته مدرسة واحدة لفهم مبادئها العامة والخاصة، ثمّ تطبيقها على الخطاب الشعري، ولكننا رفضنا هذا الخيار لأسباب موضوعية من حيث إن أية مدرسة لم تتفق إلى الآن في صياغة نظرة شاملة، وإنما كل ما نجده هو بعض المبادئ الجزئية والنسبية التي إذا أضاءت جوانب بقيت أخرى مظلمة، وقد أدى بنا هذا الشعور بقصور النظرة الأحادية إلى اختيار الأمر الثاني، وهو التعدد رغم ما يتضمنه من مشاق ومزالق"[30].

وكل نقادنا تقريبا يتبنون المعارف العربية قبل الغربية أو على الأقل يبدأون بالمعرفة العربية ثم يمرون إلى الغرب، وهذا عبد الملك مرتاض يناقش قضية النقد العربي فيقول: "ومسألة أخرى ظلت تقلقنا طوال الفترة الطويلة التي سلخناها في كتابة هذا المكتوب وهي: هل يوجد نقد عربي معاصر يرقى إلى مستوى النظرية، ويعلو إلى درجة المدرسة؟ ولقد ناقشنا مع بعض الأصدقاء عن إمكانية كتابة فصل نعرض فيه للنقد العربي المعاصر، ومع اعترافنا بوجود نقاد عرب كبار معاصرين، إلا أنّ ذلك لا يعني بالضرورة وجود نقد عربي؛ ولا سواء نقد عربي ونقاد عرب، ولكن هل في هذا ما يدعو إلى العجب والحيرة؟ أو يحمل على السؤال والصمود؟ أَوَ ليست الثقافة العربية المعاصرة تمتلك فريقا من النقاد المتألقين، الذين لا ينكر تألقهم ونجوميتهم أحد من عقلاء النقاد وأدبائهم؟ إنّا لو أردنا أن نذكر منهم طائفة لما وجدنا حرجا في الإتيان على عقد من أسمائهم ممن تزدان بهم النوادي الأدبية في الأقطار العربية مشرقها ومغربها، من النقاد الأحياء، وممن ينحون نحو الحداثة في ممارساتهم النقدية خصوصا، ونعتذر على إدراج قائمة بالأسماء، ونفترض أنها طويلة، وذلك مخافة أن نتزلق إلى التورط في الابتذالات والسقوط في إثارة الحساسيات، إننا لا ننكر – يقول مرتاض- أن لدينا نقادا عربا مرموقين، وممارسين للقراءة متألقين، وملمين بالمذاهب النقدية العالمية على نحو من العمق والشمولية، ما يجعلهم يغوصون في تحليل تلك المذاهب، والتعليق عليها، والتقرير في شأن خلفياتها المعرفية بكفاءة"[31].

إذن فالمتبصر في آراء مرتاض في النقد والنقاد العرب، يجد أنه متأثر بمعارفهم، مقتفي لآثارهم، متبني لرؤاهم، ولا نبالغ إذا قلنا أن ما جاء به مرتاض من آراء ومعارف وكذا أعمال نقدية تنظيرية كانت أم إجرائية، وفي كل كتبه تقريبا لا يخرج عن نطاق المعرفة العربية، فنجده يناقش هذا الكاتب، أو ذاك في نظرية أو مصطلح أو فكرة، دون أن يخرج عما أنتجه العرب، وطبعا كان هذا في بداياته. أما ما تأثر به من الإنتاج

الغربي خاصة الفرنسي ، فكان خلال تسعينيات القرن الماضي تقريبا.

ولا شك أن الاحتكاك بالعرب صقل كثيرا مواهب مرتاض النقدية وكشف عنها. دون أن نغفل ثقافته التقليدية، ومرجعياته التاريخية، ورصيده اللغوي. كل هذه المعطيات ساهمت مساهمة جمة في جعل الناقد من المؤسسين الأوائل لخطاب نقدي جزائري حداثي، وكذا إثراء المكتبة العربية بعديد الكتب النقدية النسقية، والتي أصبحت مرجعية نقدية معاصرة للخطاب النقدي العربي عموما، دون أن ننسى ما ألف من دراسات أكاديمية خاصة حول ما أنتجه هذا الناقد من أعمال أدبية إبداعية ونقدية كانت لها الفائدة العظيمة على مدونتنا النقدية محليا وإقليميا، ولطالما تعرض مرتاض لهجمات شرسة من المشرق والمغرب من نقاد العربية كانت بمثابة المحفز الكبير لاشتغال النقد من خلال الرد عليها، وبعض كتبه كانت بمثابة ردة فعل على ناقد أو مجموعة من النقاد، أتاحت لحركية النقد بالمزيد من التقدم والتطور فاسحة الطريق إلى الإبداع بكل أشكاله وفروعه.

وها هو حسين خمري وفي معرض تعليقه على سيطرة المقاربات التقليدية للنص الأدبي ينوّه بجهود العرب في ثورتهم على الأشكال التقليدية للنقد معترفا بفضلهم على النقد الحديث والمعاصر فيقول "وإن هذا النوع من المقاربة استمرت ممارسته طويلا في الثقافة العربية الحديثة، لظروف حضارية وثقافية معروفة، عملت على إعلاء المضمون على حساب الرسالة الجمالية لتجعل من النص شاهدا على فترة معينة واعتباره مجرد وثيقة لتأكيد سياق معين أو نفيه، ولكن الدرس الحديث أثبت أنّ النص الأدبي ليس رسالة فقط ولكنه فن؛ أي نسق من المواد التعبيرية والجمالية التي تساهم في توصيل رسالة. إنّ أول ردّ فعل على هذه الممارسات النقدية يتمثل في الالتفات إلى اللغة باعتبارها مادة الأدب –كما تقول بذلك نظرية الأدب- ولكن المدخل اللغوي وحده غير كاف إذا استغرق في الإحصاء والجداول دون تبرير أو استغلال لتواتر نسق من الجمل أو نوع المفردات التي اكتفى المحللون اللغويون والأسلوبيون بالقول إن الأفعال تدل على الحركة، وإن الأسماء تدل على السكون، وهذه مصادرة عامة، لأنه على مستوى النص الأدبي نجد أن بعض الأفعال تدل على السكون، وبعض الأسماء تدل على الحركة، ومن العرب الأوائل الذين اهتموا بهذا الجانب في العصر الحديث (لطفي عبد البديع) في كتابه (التركيب اللغوي للأدب) الذي يعتبر كتابا في فلسفة اللغة وعلم الجمال أكثر منه بحثا في مناحي الأدب، ويعتبر بحق مقدمة لكتابه الذي أصدره بعد ذلك والذي يحمل عنوان (الشعر واللغة)، ويقدم لطفي عبد البديع في كتابه (التركيب اللغوي للأدب)طريقته في التعامل مع المدخل اللغوي للأدب من خلال البلاغة قائلا "لقد أتت نظرية اللغة عند البلاغين من أمرين **أولهما**: الحدود التي أقامها النظر العقلي بين لحظات الكلمة الحية مما أفضى إلى عمقها وتعطيلها، **وثانيهما**: التحليل المنطقي الذي لا يعتبر في الحكم على شيء تصوّر المحكوم عليه وبه الحكم بحقائقها بل يُجري الجمل والعبارات مجرى القضايا المحضة التي لا مرجع لها في باب المعرفة إلاّ الحدود والتعريفات"[32].

ويواصل ناقدنا اعترافه بفضل لطفي عبد البديع ومن نحا نحوه من النقاد العرب الذين فتحوا أعين من جاءوا بعدهم على هذا النوع من المعرفة النقدية، منتقدا الدراسات اللغوية التي تهتم بالجداول والإحصاء وتهمل جانب الدلالة في النص، وكأن العمل الأدبي مجرد ركام من الألفاظ والجمل المفتتة، ثم يعود للاستشهاد بما قرره لطفي عبد البديع حينما يقول: "فالنقد الحديث، وتلك سمته الأصلية، قد استحال إلى نقد للأسلوب وصار فرعا من فروع علم الأسلوب، وبالتالي تم القضاء على جمالية النص الأدبي ورسالته باسم العلم وصار النص وسيلة العلم لا غايته، لأنه أصبح ميدانا للتطبيقات العلمية ومجالا لإبراز المعرفة الأسلوبية وتجريب المصطلحات التقنية[33].

ودائما في إطار قضية التأثير والتأثر نجد الباحث الجزائري (رشيد بن مالك)-وهو ممن تبنوا مناهج الغرب النسقية خاصة المنهج السيميائي الغريماسي - يناقش الناقد (محمد الناصر العجمي) في طائفة من الآراء التي صادفها في كتابه (في الخطاب السردي نظرية غريماس ***Greimas***)، حيث يعتقد أن (محمد الناصر العجمي) حاول –في إطار التوجه السيميائي وتحديدا نظرية غريماس- أن يقدم دراسة يتوخى الدقة في ضبط المفاهيم الإجرائية والمصطلحية والسيميائية العامة، مخصّصا لذلك قسما نظريا عرض فيه لمستويات التحليل في النظرية السيميائية، فنظر إليها على أساس أنها حقائق ثابتة دون أن يلزم نفسه في ذلك مناقشة بعض القضايا الجديرة بالطرح والمساءلة، وانتقل في القسم الثاني من هذه الدراسة إلى تحليل حكاية (الأرانب والفيلة)، وهو نص مأخوذ من كليلة ودمنة، وقد التزم الباحث خطة واضحة في فحص النص بدءا من تقطيعه وتحديد مستوياته والنظر في بنيته على الصعيدين السطحي والعميق، ولاحظنا أثناء قراءتنا لهذه الدراسة أنّ الباحث يقوم باستعراض ترسانة من المصطلحات لا نلقى فيها ما يتوافق مع الترجمات المستعملة

في الخطاب السيميائي العربي[34]. وانطلاقا من هذا التركيم المصطلحي حاول (رشيد بن مالك) أن يصحح ما ذهب إليه (العجمي)، لأن هذه الطريقة في التعامل مع المصطلح –في اعتقاده- ستؤدي من دون أدنى شك إلى تضخّم لا يساعد – في جميع الحالات- على إقامة صلة علمية حقيقية بالقارئ[35].

ومن جهة ثانية انتقد (بن مالك، العجمي) في الخلاصة التي خلص إليها الأخير في خاتمة دراسته أو تحليله لقصة (الأرانب والفيلة)، عندما أوّل صورة (الفيلة) بالحاكم المتسلط الطاغية والأرجح أن المعني هو (أبو العباس وأخوه أبو جعفر المنصور) الخليفتين العباسيين. والذي يهدده مصير شبيه بمصير الفيلة، وهو مصير يؤول إليه كل من أسس حكمه على الظلم، خارقا بذلك العقد المنظم لعلاقات الحاكم بالمحكوم، محدثا تصعيدا في توازن الكون المحكوم بقواعد أزلية[36].

ويصرح بن مالك قائلا أنه قد وجد (العجمي) مخطئا كونه تعامل "مع عبد الله بن المقفع كما لو أنه كاتب النص، فينزع بتأويله مباشرة إلى المجتمع العربي الإسلامي، وينظر من خلال النص إلى العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكوم في هذا المجتمع، يمكن أن يستغل منهجيا هذا الإسقاط في مناقشة اختيار عبد الله بن المقفع لترجمة نص تعمل مضامينه انطلاقا من تحليله على تجلية العلاقة بين الملك والرعية في المجتمع الهندي، ويتجه التأويل بعد ذلك إلى "إدراك القيم من حيث القواسم المشتركة بين المجتمعين في إشكالية تسيير الفعل السياسي""[37].

إن تأثير الناقد العربي وتوجهاته نحو النسق لجلي في الخطاب النقدي لدى حسين خمري وبوضوح، فلقد كانت منطلقاته النقدية وحتى مرتكزاته النقدية قائمة –في أول عهده- على ما أنتجه (لطفي عبد البديع) وأمثاله من النقاد العرب، وبعد أن تفهم ذلك توجه إلى مدارس الغرب ينهل منها.

2-2- الأصول العربية المغاربية:

بشيء من الموضوعية العلمية لا يمكن أن ننكر ما قدمته الكتابات المغاربية من معرفة للساحة النقدية الجزائرية وبالخصوص في مجال النقد النسقي، فلقد كانت بمثابة عامل دفع قوي وذلك من خلال تلك الأعمال الكبيرة التي أبدعها المغاربة والتونسيون خاصة في مجال النقد البنيوي والأسلوبي والسيميائي، وقد كانت هذه الكتابات تثير الحماس العلمي لدى نقادنا مما جعلهم يدارسونها بروح تنافسية؛ وبالتالي يحاولون بناء شخصية نقدية جزائرية مستقلة، وكثيرا ما كانت تلك المناظرات –وإن كانت غير مباشرة- في إبداعاتهم تطوّر هذه المعارف وتحاول أن تؤصل لها وتنشرها، وقد يصل الأمر إلى محاولة التنظير لها.

والملاحظ أن النقاد المغاربة قد بكّروا إلى ترجمة المعارف الغربية ومدارستها وتبنيها وهذا أمر سهل على الناقد الجزائري استيعاب هذه العلوم وبالتالي تبنيها، ونحن نرى أن معظم من تبنوا هذه العلوم قد أخذها مباشرة من هذه الترجمات باعتبار أن الناقد المغربي أكثر فهما لهذه المعارف خاصة عندما يأخذها من أصلها وأقصد المدارس الغربية خاصة المدرسة الفرنسية.

ويمكن القول أن مجموعة من النقاد المغاربيين كان تأثيرهم بيّنا في نقادنا وبشكل لافت ونذكر منهم (محمد مفتاح)، و(سعيد بن كراد)،و (سعيد يقطين)،و(سعيد علوش)،و(عبد الفتاح كيليطو)،و(عبد السلام المسدي)،و(حسين الواد) وغيرهم، والحقيقة فقد كانت مجهودات هؤلاء معتبرة ومبكرة في تكوين قاعدة نقدية نسقية عربية بما ترجموه وأبدعوه في هذا المجال. فقد كان حضورهم قويا ولافتا ومتكررا في بيبلوغرافيا كتابات نقادنا، سواء بنقل نظرية مترجمة أم بنقل وجهة نظر، أم بنقد توجه فكري. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا لا يعد –في نظر النقد والنقاد- ضعفا واتكالية مذمومة، بل على نقيض ذلك، إن ما فعله الناقد الجزائري يعد من صلب النقد ومن أهم المرتكزات التي تنهض بها المعارف، لأن قضية التأثير والتأثر ساهمت في إبداع هذا الفكر لدى الغربيين قبلنا، ولأن الغربيين أنفسهم لم ينطلقوا من عدم، كون النظريات لا تأتي مرة واحدة بل تخضع لقانون التطور والتأثير والتأثر.

فهذا الناقد (عبد الملك مرتاض) وفي معرض مناقشته لمصطلح التشاكل شرحا وتعريفا ومناقشة لما جاء به الغربيون أمثال (غريماس) و(جون ديبوا)، خلص إلى قناعة مفادها أن ما جاء به هؤلاء من تعاريف كان غامضا ومبهما إلى حدّ كبير، ثم تحول إثر ذلك إلى تعريف الناقد المغربي (محمد مفتاح) والذي عرّف التشاكل بأنه "تنمية لنواة معنوية سلبيا وإيجابيا بإركام قسري أو اختياري لعناصر صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية وتداولية ضمانا لانسجام الرسالة"[38]. والذي وسمه هو الآخر بالغموض والإبهام في تعريفه هذا قائلا: "نحن وعلى اعتزازنا الشديد بأن يتصدى دارس عربي إلى هذه التعريفات السيميائية، فيحاول استكمال نقصها، وتوضيح غامضها، إلا أن تعريفه هذا –على طوله وإلحاحه في طوله- يظل غامضا لدى القارئ بالإضافة إلى اصطناع لغة قد تكون صلتها بالسيميائية والتنظير للخطاب الأدبي ضعيفة"[39]. وحاول

بعد ذلك أن يأتي بتعريف لهذا المصطلح يكون بعيدا عن الغموض والإبهام، وما يهمنا نحن –في هذا السياق- هو تلك المناظرات والمشاكسات العلمية –إن صح التعبير- والتي طالما كانت دائرة بين النقاد العرب والتي –كما سبقت الإشارة- كان لها دور بارز في إحياء موات النقد العربي.

وهناك قضايا أخرى أتاحت لنقادنا مراجعة ما كتبوه في هذا المجال وتصحيح ما أبدعوه كتلك التصريحات التي يطلقها النقاد ردا على نقاد آخرين في ثنايا كتاباتهم، مما يؤدي بالمنقودين إلى ردة فعل تفند أو تصحح مآخذهم، وهذا الأخذ والعطاء يمكن أن نصنفه ضمن دائرة التأثير والتأثر، وكذلك ضمن دائرة الإبداع وتطور وإنماء الأشكال والمضامين، سواء النقدية أو الأدبية، وهذا ما حدث مع الناقد (محمد عزام) حيث يرى هذا الناقد أن عبد الملك مرتاض يغري القارئ بعناوين كتبه، فإذا ما قرأ القارئ الكتاب خاب أمله، لأنه لا يجد فيها ما كان يأمله من نقد حداثي منهجي، إضافة إلى أن معظم كتبه تحمل عناوين فرعية تجمع بين منهجين نقديين، هما في الأغلب السيميائي والتشريحي (أو التفكيكي)، لكن مضمونه يخالف عنوانه تماما، فهو بعيد حتى عن التوفيق (التلفيق) بين منهجين أو أكثر. ففي كتابه (بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية) الصادر عام 1986. كنا نتوقع –يقول محمد عزام- أن يطلعنا الباحث عن نظرية المنهج التشريحي الذي عنون به كتابه، لكنه ما زاد على أن عالج قصيدة الشاعر اليمني (عبد العزيز المقالح) عبر مناقشة العناصر التالية: (خصائص البنية، الصورة الفنية، الحيز الشعري، الزمن الأدبي، الصوت والإيقاع، والمعجم الفني) وكلها عناصر فنية في النقد التقليدي لا الحداثي[40].

وهذا النقد ومثله –باعتبار أن مرتاض تعرض لهجمات شرسة- حفز ناقدنا على تقويم آرائه وتطوير دراساته وتنقيح معتقداته، ومراجعة طرائقه وآلياته سواء في تبني نظرية من النظريات أو من خلال القراءة النصية.

الهوامش:

1- ينظر: نبيلة زويش، تحليل الخطاب السردي في ضوء المنهج السيميائي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ط.1، ص.8.

2- ينظر: بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته وأصوله، دار الرشاد للطباعة، الجزائر 2009، ص.16.

3- محمد بلوحي، الخطاب النقدي المعاصر من السياق إلى النسق، ص.80.

4- ينظر: م. س. ص. 8.

* أصبحت الأعمال النقدية تعتمد على الإحصاء والعلاقات الرياضياتية والحساب، كما اعتمدت على دراسات أخرى على تشريح النصوص تشريحا شبه طبي حتى تكشف عن الظاهرة الأدبية أو الشعرية فيه.

5- عز الدين المخزومي، الواقع النقدي الجزائري الجديد بين هاجس التبعية المدرسية وروح الانفلات والتأصيل، مجلة اللغة والاتصال، جامعة وهران، الجزائر،ع.01، رمضان 1426، أكتوبر 2005، ص.25.

6- ينظر: أحمد شريبط، النص النقدي الجزائري من الانطباعية إلى التفكيكية، أعمال الملتقى الوطني الثاني (الأدب الجزائري من ميزان النقد) جامعة عنابة، معهد اللغة والأدب العربي، 1994، ص.18.

وينظر: علي خفيف الترجمة النقدية عن عبد الملك مرتاض، (مخطوط ماجستير) معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، 1995، ص.96.

7- نشرت هذه الدراسة في مجلة الآداب، بيروت، السنة 29، العددان11-12، نوفمبر ديسمبر،1981، ص83.

8- ينظر: يوسف وغليسي،النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص. ص. 122-123.

9- شايف عكاشة، نظرية الأدب في النقدين الجمالي والبنيوي في الوطن العربي، (نظرية الخلف اللغوي) د. م. ج. الجزائر، ج.3، 1992، ص.105.

10- ومن أشهر كتبه الحداثية التي حاول أن يؤسس من خلالها لنظرية عربية حداثية نذكر:

- عبد المالك مرتاض، أ. ي. (دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة «أين ليلاي» لمحمد العيد)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة،قصيدة القراءة (تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية)، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1994.

عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق)، د. م. ج. الجزائر، 1995.

عبد المالك مرتاض، ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي لحكاية حمال بغداد، د. م. ج. الجزائر، 1992.

عبد المالك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين؟ ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري (دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.

عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار همة، الجزائر، 2002.

عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة (تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003.

عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور)، دار هومة للنشر، الجزائر، 2001.

عبد المالك مرتاض، الكتابة من موقع العدم (مساءلات حول نظرية الكتابة)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003.

عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001.

عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم (مساءلات حول نظرية الكتابة)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003.

11- ينظر: عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة دراسة ميدانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

12- ينظر: قادة عقاق، السيميائية السردية وتجلياتها في النقد المغاربي،(نظرية غريماس نموذجا)، مخطوط دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2002/ 2003. ص305.

13 - وذلك من خلال ما نشره من مؤلفات مثل (ما هو الأدب)، و(مقالات في النقد الأدبي)، و(فن القصة القصيرة).

14 - والذي تبدو بعض عناوين كتبه محاكية لبعض عناوين كتب النقد الجديد على سبيل المثال كتبه (قراءة الرواية) سنة1974 و(قراءة الشعر) سنة 1985، وهي محاكية لكتابي الناقدين (كلين بروكس/فهم الشعر 1938) و(روبرت وون/ فهمالرواية) سنة 1943.

15- محمد الربيعي، من أوراقي النقدية، دار غريب، القاهرة، مصر، د.ت. ص.ص.46-47.

16- محمد عناني، النقد التحليلي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1991، ص. 80.

17- ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، من ص.57 إلى ص.62.

18 ينظر: أحمد يوسف، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، ص. 100.

19 ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص.27.

* ومن نقادنا من يرى أن ملامح إزاحة السياق ظهرت جليا في الخطاب النقدي العربي المعاصر عندما وجّه نقد لبعض الممارسات والمناهج النسقية التي رسختها كتابات طه حسين (1889-1973) والعقاد (1889-1964) وأتباعهما وتمثل ذلك في الدعوة إلى التعامل مع النص الأدبي تعاملا لغويا وجماليا. ولعل من أبرز النقاد الذين خاضوا معركة من أجل إزاحة السياق لطفي عبد البديع ومصطفى ناصف. وكان محمود شاكر قبلهما قد أشار إلى الحياة الأدبية الفاسدة التي سنها الشيوخ والأدباء الكبار، وبعض تلاميذهم وأشياعهم، ولكن هذا الواقع الأدبي المريض مرده إلى الإقبال على تقليد المناهج الغربية التقليدية، وإساءة اصطناعها في الممارسة النقدية العربية.

وللتفصيل أكثر: ينظر: أحمد يوسف: القراءة النسقية ومقولاتها النقدية،ص.94.

20- ينظر: محمد مندور، في الميزان الجديد، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1973، ص.170.

21- أحمد يوسف: القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، ص. ص. 94-95.

* وهو في الأصل بحث أعد لنيل شهادة الكفاءة في البحث ونوقش في جوان 1972.

22- ينظر: توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، الدار العربية للكتاب، تونس/ ليبيا، 1984، ص.40.

23- ينظر: يوسف وغليسي مناهج النقد الأدبي، ص.73.

* سنأخذ فيما يلي عدة نماذج نبين فيها مدى تأثر الناقد الجزائري بنظيره العربي كمًا وكيفا، ونحاول أن نقيّم هذه الحالة التي مرّ بها النقد الجزائري في أيامه الأولى وهو ينتقل من السياق إلى النسق.

24- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، 2007، ص.14.

25- حسين خمري، نظرية النص (من بنية المعنى إلى سيميائية الدال) منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص. 366.

26- ينظر: م. س.. ص. ن

27- وقد أحالنا الباحث على: انطوان المقدسي، الحداثة والأدب، دمشق، سوريا، الموقف الأدبي،ع.9. يناير 1975.

28- في كتابه المشهور (الأسلوبية والأسلوب) الصادر عن الدار العربية للكتاب، تونس، ط.2، 1982.

29- للتفصيل أكثر ينظر: نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، من الصفحة 67 إلى الصفحة 84.

30- م. س .ص.75.

31- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومة، الجزائر، 2002، ص. ص. 18-19.

32- حسين خمري، الظاهرة الشعرية العربية الحضور والغياب، ص. ص. 19-20.

33- م. س. ص .ن.

34- رشيد بن مالك، مستقبل الدراسات السيميائية في العالم العربي، مقال مخطوط غير منشور، جامعة تلمسان، 2004. ص.19.

35- م. س. ص. ن.

36- ينظر: محمد الناصر العجمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس Greimas الدار العربي للكتاب، تونس، 1993. ص140.

37- رشيد بن مالك، مستقبل الدراسات السيميائية في العالم العربي، ص. 20.

38- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط. 1، 1985، ص. 25.

39- عبد الملك مرتاض، نظرية القراءة(تأسيس لنظرية عامة للقراءة الأدبية)، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص. 134.

40- ينظر: محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2003. ص142.